محاولة لتفسير مراحل خلق السموات والأرض في ستة أيام.

ثائر سلامة، أبو مالك

لقد من الله تعالى علي بأن قمت بدراسة تفصيلية بالغة الدقة حول نشوء الكون واستمراره واستقراره استغرقت سنوات طويلة جدا نافت عن الخمس سنوات، وأبحرت فيها في أعماق أبحاث علمية، كانت حصيلة نحو مائة عام من الأبحاث العلمية الرصينة عالية المهنية، فرأيت أنني بلغت - -بحمد الله وفضله- معرفة شاملة دقيقة أستطيع معها أن أُقَدّم رؤيةً دقيقةً (لا شك أنها رؤية ظنية وليست قطعية)، لكنها رؤية جادة عالية المهنية لتفسير مراحل خلق السموات والأرض في ستة أيام، والتي ذُكرت في سبعة مواضع من القرآن الكريم، والتوفيق بينه وبين ذكر مراحل الخلق والتدبير التي نصت على ما عدده ثمانية أيام في سورة فصلت.

نشوء المجموعة الشمسية وتطور العناصر اللازمة للحياة

1. الانفجار العظيم وتكون العناصر الأولية:

تنتمي الأرض إلى المجموعة الشمسية، في مجرة درب التبانة، بين ذراعين من أذرع المجرة في منطقة تبعد حوالي ثلثي المسافة ما بين قلب المجرة وأطرافها، **تلك المنطقة الريفية الهادئة الصالحة تماما للحياة!**

قبل نشوء المجموعة الشمسية بوقت طويل، وُلد الكون من خلال الانفجار العظيم قبل حوالي 13.82 مليار سنة. في الثواني الأولى بعد هذا الانفجار، تشكلت العناصر الخفيفة الأساسية مثل الهيدروجين والهيليوم وبعض الليثيوم. هذه العناصر الأولية شكلت اللبنات الأساسية للكون في مراحله الأولى.

2. العصر الغازي – عصر الدخان، (العصر المظلم) للكون:

بعد مرور 379,000 سنة من الانفجار العظيم، دخل الكون في مرحلة غامضة تُعرف بـ"العصر المظلم" أو "عصر الدخان" كما ورد في التعبير القرآني. في هذه الحقبة، كانت الحرارة قد انخفضت بدرجة كافية للسماح للإلكترونات والبروتونات بالاتحاد وتشكيل ذرات الهيدروجين المحايدة في عملية تُعرف بـ"إعادة التركيب". كان الكون خلال هذه الفترة مليئًا بغاز الهيدروجين المحايد، خاليًا من النجوم والمجرات، ليبدو كبحر هائل من الظلام والهدوء الغامض.

ورغم هذا الظلام، كانت تلك الفترة تمثل مرحلة حاسـمة في تاريخ الكون، إذ وفرت الظروف المثالية لبداية تكوين الهياكل الكبرى التي ستشكل ملامح الكون لاحقًا، كالنجوم والمجرات. وبعد مرور حوالي 150 مليون إلى 1 مليار سـنة، بدأت النجوم الأولى في التكون، مضـيئةً الكون لأول مرة، مما أدى إلى إعادة تأيين الغاز المحايد وإنهاء تلك الحقبة المظلمة. وهكذا، خرج الكون من عصره المظلم ليبدأ رحلة طويلة نحو التكوين.

3. النجوم الضخمة والمستعرات الأعظمية:

للنجوم أنواع وأحجام، سأذكر بتبسيط ثلاثة أنواع منها:

أولها: النجوم الصغيرة والمتوسطة (مثل الشمس):

- هذه النجوم، التي تكون كتلتها أقل من 8 أضعاف كتلة الشمس، تُنتج بشكل أساسي عناصر خفيفة مثل الهيدروجين والهيليوم، وبعض العناصر الأثقل مثل الكربون والنيتروجين عبر تفاعلات الاندماج النووي في قلب تلك النجوم.
- في نهاية حياتها، تتحول هذه النجوم إلى أقزام بيضاء، وتطرد أغلفتها الخارجية في شكل سديم كوكبي.

ثانيا: **النجوم الضخمة:**

- النجوم التي تزيد كتلتها عن 8 أضعاف كتلة الشمس تصل إلى درجات حرارة عالية جدًا في نواتها، في هذه المراحل، تندمج ذرات العناصر الخفيفة لتشكيل عناصر أثقل، بدءًا من الكربون والأكسجين وصولاً إلى الحديد في المرحلة النهائية من أعمار تلك النجوم، مما يسمح لها -خلال فترة حياتها- بتخليق عناصر أثقل مثل الأكسجين، والنيون، والمغنيسيوم، والسيليكون.
- عندما تستهلك هذه النجوم وقودها النووي، يتوقف الاندماج، وتصبح النواة غير قادرة على دعم وزنها، مما يؤدي إلى انهيارها بشكل كارثي فتنفجر النجوم انفجارات مستعرة أعظمية. (Supernovae)،
- هذا الانفجار ينتج كمية هائلة من الطاقة والضغط، مما يؤدي إلى تخليق عناصر أثقل من الحديد مثل الذهب، واليورانيوم، والبلاتين من خلال عملية التقاط النيوترونات السريعة.(r-process)

- هذه العناصر الجديدة والمواد الناتجة عن انفجار النجم تُقذف في الفضاء البينجمي (أي الفضاء بين النجوم) بسرعة هائلة فتنتشر فيه، مُشكّلة سحبًا من الغازات والجزيئات. من هذه السحب الغازية المثقلة بالعناصر تتشكل أجيال جديدة من النجوم والكواكب الغنية بالعناصر الثقيلة.

ثالثا: **النجوم الضخمة جدًا (أكثر من 20 ضعف كتلة الشمس)**:

- هذه النجوم تكون قادرة على تخليق العناصر الأثقل في مراحل متقدمة من حياتها، مثل الحديد. وفي لحظة انفجارها كمستعرات أعظمية، تنتج العناصر الأثقل مثل الذهب واليورانيوم، التي تنتشر عبر الفضاء البينجمي.

عودة إلى تسلسل الخلق، نقول:

مع نهاية العصر الغازي، بدأت النجوم الأولى، والتي كانت كبيرة جدًا، وتزيد كتلتها عن ثمانية أضعاف كتلة الشمس، كانت تمثل المصانع الكونية التي تنتج العناصر الثقيلة اللازمة للحياة، بما في ذلك الحديد والكربون. هذه النجوم الضخمة تمر في نهاية حياتها بمراحل متسارعة تؤدي إلى انفجارها في مستعرات عظمى (Supernovae). هذه الانفجارات هي التي تنشر العناصر الثقيلة في الفضاء، مخصبةً الوسط البينجمي، مما يمهد لنشوء أجيال جديدة من النجوم والكواكب.

4. **عمرك الحقيقي هو 13.82 مليار سنة، سأذكر لك قصة حياتك منذ تلك اللحظة إلى اليوم!**

يجب أن يبقى معلوما وواضحا جدا أن مادة الكون التي نشأت منها كل الكواكب والنجوم والمجرات، بل والإنسان نفسه، أنا وأنت، هذه المادة خلقت كلها في لحظة خلق الكون، وكانت في قلب الانفجار العظيم، فإذا ما أردت معرفة عمر المادة التي تكونت أنت منها فإن عمرها هو 13.82 مليار سنة،

في بداية الكون، كانت الحرارة لا تصدق، تفوق الخيال بمليارات الدرجات. في اللحظات الأولى بعد الانفجار العظيم، لم يكن هناك مكان للراحة أو الاستقرار؛ كانت الجسيمات تحت الذرية والإلكترونات تتحرك بسرعة جنونية، غير قادرة على الاتحاد بسبب الحرارة الهائلة التي تجاوزت تريليونات الدرجات. لم يكن بإمكان الإلكترونات والبروتونات الاقتراب من بعضها البعض، حيث كانت تصطدم وتبتعد بسرعة.

كانت المادة تتحول إلى طاقة والطاقة إلى مادة مليارات المرات بشكل متكرر نتيجة السرع الهائلة والحرارة الهائلة، منذ الثانية الأولى بعد الانفجار العظيم، لكن مع مرور الوقت، وبعد مرور أول 379,000 سنة من

عمر الكون، بدأت الحرارة تنخفض إلى نحو 3000 درجة كلفن، مما سمح للذرات الأولى مثل الهيدروجين والهيليوم بالتشكل، ليبدأ الكون أولى خطواته نحو الهدوء النسبي.

هذه الذرات تجمعت معًا لتشكيل النجوم الأولى بعد 150مليون سنة تقريبا، ولكن القصة -قصة حياتك- لم تنته الإثارة منها هنا. في قلب تلك النجوم، ارتفعت الحرارة من جديد، لتصل إلى ملايين الدرجات، لتبدأ عمليات الاندماج النووي. هنا، في أفران النجوم المتقدة، ولدت العناصر الأثقل مثل الكربون والأكسجين، بل وحتى الحديد. الحديد، الذي يدخل في تكوين دم الإنسان، تشكل في قلب النجوم عند درجات حرارة تصل إلى 3 مليارات درجة كلفن، نعم كانت جسيمات مما يتشكل منه جسمك الآن في فرن عظيم في قلب أحد النجوم التي هي أكبر من شمسنا بأكثر من 8 كتل شمسية في مكان ما من هذا الكون الفسيح.

ليس الحديد فقط، بل الإنسان يتكون بشكل رئيسي من العناصر التالية الأكسجين(O) الكربون (C)الهيدروجين(H) النيتروجين(N) الكالسيوم(Ca) الفوسفور(P) البوتاسيوم(K) الكبريت(S) الصوديوم (Na)الكلور(Cl) المغنيسيوم(Mg) الحديد(Fe) الزنك(Zn) ويحتوي أيضًا على كميات صغيرة من عناصر أخرى مثل النحاس، المنغنيز، اليود، السيلينيوم، والكروم. لقد اشتغلت نويات النجوم في تفاعلات اندماج نووية كثيرة وعلى درجات حرارة عالية جدا لتنتج العناصر الضرورية التي تتشكل منها حضرتك!

ولكن ماذا عن تلك النجوم الضخمة؟ حينما نفد الوقود النووي في قلبها، انهارت تحت تأثير جاذبيتها الخاصة، مما أدى إلى انفجار سوبرنوفا مذهل. في هذا الانفجار الهائل، تجاوزت درجات الحرارة مليارات الدرجات كلفن مرة أخرى، لتولد العناصر الأثقل مثل الذهب واليورانيوم، وتنثر في أرجاء الكون.

لقد قذفت النجوم التي كانت المادة التي تشكلت أنت منها في الفضاء البينجمي، ومع مرور مليارات السنين، اجتمعت تلك المواد لتشكيل الأرض، حيث أخذت الحياة تنبثق تدريجياً من تلك العناصر التي ولدت في قلب النجوم حين تشكلت منها الكائنات الحية على الأرض، وشاء الله تعالى أن يخلق الحياة على الأرض قبل نحو 3.8 مليار سنة. الإنسان، المكون من كربون، أكسجين، وحديد، هو نتيجة مباشرة لهذه العمليات الفلكية المذهلة.

لذا، عندما تنظر إلى جسمك، تذكر أن ذراتك قد ولدت وتشكلت في قلب نجم ملتهب قبل مليارات السنين، عبر تفاعلات اندماج نووي، وأنك تجسد تلك الرحلة الطويلة من الحرارة الهائلة، والفوضى، والتحول من مادة إلى طاقة، ومن طاقة إلى مادة، إلى الانفجارات الكونية إلى الحياة والوعي.

وحين تذكر مراحل الخلق، متى خلقت الأرض مثلا أو السموات، كل المادة التي تتشكل منها السموات والأرض كلها خلقت في نفس اللحظة الزمنية في قلب الانفجار العظيم، لكنها سارت في رحلة طويلة لتصل لتشكيل المادة التي تشكلت منها الأرض أو التي تشكل منها الإنسان، هذه نقطة مهمة في دراسة الأيام الستة الواردة في القرآن الكريم، ومهمة جدا حين نقول بأن الأيام الستة **تشكل روزنامة كونية** منذ الانفجار العظيم إلى اليوم، أنت خُلقت يوم خلق الله الكون، ولكنك تخلّقت من المادة نفسها في زمن قريب من اليوم حين تم لقاح البويضة بالحيوان المنوي ومن بعدها حين نفخت الروح في تلك النطفة الأمشاج، فهو خلق بعد خلق.

5. تكوّن المجموعة الشمسية:

نشأت المجموعة الشمسية قبل نحو 4.6 مليار سنة، أي إنه مضى نحو 9.2 مليار سنة منذ الانفجار العظيم، قبل أن توجد المجموعة الشمسية في الكون.

إذن: المجموعة الشمسية التي نعيش فيها هي نتاج لتلك العمليات التي استمرت مليارات السنين قبل نشوئها. نشأت المجموعة الشمسية من سحابة جزيئية غنية بالعناصر الثقيلة التي تكونت نتيجة المستعرات العظمى السابقة. هذه السحابة انهارت تحت تأثير الجاذبية، مكونةً الشمس والكواكب التي تشكل المجموعة الشمسية من المواد الغنية التي كانت موجودة في تلك السحابة. استفادت الكواكب الصخرية مثل الأرض من توفر هذه العناصر الثقيلة لتكوين قلب صخري، وغلاف جوي، ومحيطات، مما سمح بظهور الحياة حين شاء الله تعالى خلقها في الأرض.

لا بد من الانتباه لهذه النقطة الهامة جدا، كان لا بد من فترة زمنية طويلة تنشأ فيها نجوم ضخمة جدا قادرة على إنتاج العناصر الثقيلة من الكربون حتى الحديد، وكلها عناصر ضرورية للحياة، ضرورية لتشكل الكواكب الصخرية والغازية، ومن هذه العناصر تتكون الأرض ونواتها وقشرتها وتربتها، ومنها يتكون الغذاء، وكان انفجار المستعرات الأعظمية لازما لتتشبع أطراف مجرة درب التبانة بتلك العناصر الضرورية، ولا تقتصر ضرورة هذه العناصر على نشوء الحياة، بل على تكوين الإنسان نفسه، وتكوين الأقوات اللازمة لمعيشة الكائنات الحية على الأرض، تذكر هذه النقطة جيدا حين تقرأ قوله تعالى:

وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ

إذ إن خلق الأرض في يومين، بينما تقدير الأقوات في أربعة أيام، مفهومه أوسع من مفهوم إنبات الزرع والنباتات، والحيوانات التي يغتذي عليها الإنسان أو التي تغتذي بعضها على بعض، إنما يتعدى الأمر لأكبر من

ذلك إلى التأمل في تشكل المادة والعناصر التي احتاجت لأفران كونية ضخمة هائلة لتنتج العناصر التي تتشكل منها الحيوانات والنباتات وعاشت تلك النجوم ملايين السنين قبل أن تنفجر في الفضاء البينجمي وتتشكل منها سحابات ضخمة كانت نواة لكواكب ونجوم ومجموعات، منها المجموعة الشمسية! فهذه استغرقت يومين قبل خلق المجموعة الشمسية، ويومين منذ خلق الأرض والمجموعة الشمسية إلى وقتنا الحاضر!

6. العصر الذهبي للكون:

إذن نخلص من هذا أنه يجب أن يكون الكون قد مر بوقت كافٍ منذ نشأته ليصبح قادرًا على إنتاج المعادن الثقيلة الضرورية للحياة. تشير الدراسات إلى أن الفترة التي مرت منذ نشأ الكون إلى أن نشأت الحياة على الأرض الكون يمكن تسميتها بـ"العصر الذهبي"، عندما كانت الظروف مواتية بشكل خاص لظهور الحياة. كان الكون قد أنتج بالفعل مستويات كافية من العناصر الثقيلة من خلال النجوم السابقة، وكانت النجوم الجديدة تدخل في مرحلة "التسلسل الرئيس"، حيث تكون مستقرة وتدعم تشكيل أنظمة الكواكب. إذا كان الكون أصغر عمرًا، لما كانت هناك عناصر كافية لتشكيل الكواكب الصخرية. وإذا كان الكون أقدم بكثير، -أي لو كان عمره مثلا ثلاثين أو أربعين مليار سنة، بدلا من عمره المحسوب بدقة والمتمثل ب 13.82 مليار سنة- لكانت النجوم قد بدأت في التحول إلى أقزام بيضاء، ما يجعل وجود الحياة مستحيلاً.

7. استعراض الآيات الكريمات:

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)﴾ فصلت،

أما باقي الآيات في مواضع سبعة من القرآن فذكرت خلق السموات والأرض في ستة أيام دون تفاصيل.

لا بد من ذكر أن الأيام المذكورة في الآيات ليست الأيام الأرضية التي تبدأ بشروق الشمس وتنتهي بشروق شمس اليوم التالي، بل هي تقديرات زمنية اختلف تقدير مفهوم "اليوم" في القرآن الكريم، ذكر منها تقدير اليوم بألف سنة مما تعدون، وذكر منها تقدير اليوم بخمسين ألف سنة، ولم يعطنا أي تقدير نعرف منه على وجه القطع ما هي المدة الزمنية التي سماها: ستة أيام، والتي تتعلق بخلق السموات والأرض.

يعقد الدكتور موريس بوكاي في كتابه القرآن والتوراة والعلم، مقارنة لذكر بدء الخلق في التوراة والقرآن، ويجد أن التعبير بالأيام في القرآن مغاير لمفهوم الأيام في التوراة، (انظر ص 50 من كتابه) إذ التوراة تنص على أن الخالق استراح في اليوم السابع يوم السبت، وتذكر اليوم ومساءه وصباحه، انظر مثلا سفر التكوين: الإصحاح الأول الآيات 3-5: (ليكن نور، فكان النور، ورآى الله أن النور حسن، وفصل بين النور والظلمات، ودعا الله النور نهارا والظلمات ليلا، وكان مساء صباح اليوم الأول) وهي بذا تتعارض مع حقيقة أن اليوم ما هو إلا نتاج دوران الأرض حول نفسها دورة كاملة، ولكن القرآن في مواطن مختلفة عبّر عن الأيام بشكل نسبي، فذكر أنه سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)﴾ وقال عن يوم القيامة: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)﴾ المعارج، فالأيام إذن مراحل تقديراتها الزمنية تتفاوت، وليست دائما مجرد وحدة زمنية لحساب مقدار مجموع النهار والليل، فما نعده على الأرض من أيام ليست هي التقديرات الزمنية المتعلقة بالأيام الكونية. أنظر ص 181-183 من كتاب بوكاي.

فالتعبير بالأيام هنا تعبير **عن مراحل**، قد تتداخل مراحل تتعلق بالأرض بمراحل تتعلق بالسموات، والترتيب غير مراد، أي أن "ثم" التي في ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾، غير مراد أن يقول إن الأرض خلقت قبل السماء، لسببين الأول الترتيب **حسب الأهمية المناسبة للسياق**، لا الترتيب الزمني للحدوث، وثانيا: لأنه رتب في آيات أخرى ذكر الأرض بعد ذكر السماء، حين الحديث عن الخلق.

لنرتب المراحل كما في الآية الكريمة: سبق وبينا أن هناك مرحلة في الخلق يسميها علماء الفلك بالعصر الغازي – (العصر المظلم) للكون وأطلق عليها القرآن بدلا من كلمة غاز وصف: الدخان،

وصف الغاز لحالة المادة تعريب لكلمة غاز، وكانت العرب تستعمل الدخان، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)**﴾ فصلت، فوصف مرحلة الدخان وصفا للسماء ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أعقبته بمرحلة النجوم، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾،

فكما فصلنا سابقا، بعد مرحلة العصر الغازي بنحو 150 مليون سنة تقريبا بدأت النجوم بالتشكل في السماء، وضرورة الغاز لهذا التشكل يكمن في أن النجوم تتشكل من سحابات من الغاز كما أشرنا سابقا.

والسؤال الآن عن استعمال حرف العطف: ثم، في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ لا يفيد الترتيب الزمني بالضرورة، أي لا يدل على أن خلق الأرض سبق خلق السماء، فحرف العطف ثم يفيد ترتيب معان مقصودة يراد إبرازها من السياق، لأهمتها للسياق يراجع مقال: على موقع الإسلام سؤال وجواب: لا يلزم في العطف بـــ " ثم " الترتيب الزمني على كل حال. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الكون كله خلق في نفس اللحظة وانفجر انفجارا عظيما في نفس اللحظة، لكن استغرق الأمر أربعة أيام من الخلق بعد الخلق حتى تشكلت المادة التي نشأت منها المجموعة الشمسية، ووجدت الأرض من تلك المادة في اليومين الأخيرين من الأيام الستة، منذ نشأت المجموعة قبل 4.6 مليار سنة إلى وقتنا الحاضر، حيث إننا **نرجح أن الأيام الستة هي روزنامة كونية ضخمة تؤرخ للأحداث الهامة منذ نشأ الكون عبر الانفجار العظيم إلى وقتنا الحاضر**، فبتقسيم 13.82 مليار سنة، نجد أن يومين منها (أي ثلثها هو 4.6 مليار سنة وهو عمر المجموعة الشمسية، و9.2 مليار سنة منها هو عمر الكون قبل نشوء الأرض وهو يمثل أربعة أيام من ستة).

أما الآيات التي ذكرت خلق السماوات قبل خلق الأرض فهي كثيرة في القرآن:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)﴾، ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ

اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)﴾

الخلاصة:

يذكر القرآن الكريم في سبعة مواضع أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام. هذه الأيام ليست كأيامنا الأرضية، بل هي مراحل زمنية طويلة قد تمتد لمليارات السنين. في سورة فصلت، يُذكر خلق الأرض في يومين، وتقدير أقواتها في أربعة أيام، ثم خلق السماوات في يومين آخرين، ليبدو وكأن مجموع الأيام ثمانية. لكن هذا العدد لا يتعارض مع الستة أيام المعلومة، لأن هذه الأيام قد تتداخل مراحلها، فهي ليست أيامًا متتالية، بل مراحل متكاملة.

تبدأ قصة الخلق من لحظة الانفجار العظيم، حيث كانت الحرارة الهائلة تعيق تكوين النويات والجسيمات. مع مرور الوقت، بدأت الحرارة في الانخفاض، مما سمح بتشكل الذرات الأولى مثل الهيدروجين والهيليوم. ثم، عبر مليارات السنين، بدأت النجوم تتشكل وتصبح مصانع كونية تنتج العناصر الثقيلة كالحديد.

تلك العناصر، التي تكونت في قلوب النجوم عند درجات حرارة تصل إلى مليارات الدرجات كلفن، هي التي تشكلت منها الأرض والحياة لاحقًا. فالحديد الموجود في دم الإنسان، على سبيل المثال، لم يكن ليُخلق إلا من خلال تلك العمليات الخارقة التي حدثت في النجوم.

إن ذكر الأيام الستة والأيام الثمانية في القرآن ليس تناقضًا، بل هو إشارة إلى المراحل المختلفة والمعقدة التي مرت بها عملية الخلق. فكل شيء في الكون يسير وفق نظام دقيق يعكس عظمة الخالق وحكمته. الإنسان، المكون من عناصر النجوم، هو نتاج لهذه العمليات الكونية المذهلة التي تتطلب التأمل والتدبر في عظمة الخلق وعظمة الخالق.

إذن، فالنظر المستنير إلى تفسير الأيام الستة وإلى تقدير الأقوات وخلق الإنسان، وإبراز أهمية الأرض في هذا كله لأنها المكان الذي يخلق الله تعالى عليه هذا الإنسان العاقل الذي كلفه الله بالنظر والتأمل كي يتوصل إلى عظمة الخالق وطلاقة قدرته، يمر بالتفكير بهذه الأفران الكونية الضخمة التي أنتجت العناصر اللازمة لتشكيل الأرض والإنسان والأقوات، والتأمل فيها يبين عظمة الخالق سبحانه وتعالى.

كتبها: ثائر أحمد سلامة،

المراجع العلمية:

- Freeman, K., & Bland-Hawthorn, J. (2002). The New Galaxy: Signatures of its Formation. Annual Review of Astronomy and Astrophysics, 40, 487-537.
- Bromm, V., & Larson, R. B. (2004). The First Stars. Annual Review of Astronomy and Astrophysics, 42, 79-118.
- Tinsley, B. M. (1979). Stellar lifetimes and abundances in galaxies. The Astrophysical Journal, 229, 1046-1068.
- Woosley, S. E., & Weaver, T. A. (1995). The Evolution and Explosion of Massive Stars. The Astrophysical Journal Supplement Series, 101, 181.
- Kasting, J. F., Whitmire, D. P., & Reynolds, R. T. (1993). Habitable Zones around Main Sequence Stars. Icarus, 101(1), 108-128.